

المقال التاسع

ابن النفيس*

إنه لشرف عظيم أن ألقى اليوم المحاضرة التذكارية (لابن الهيثم)، وإن شاعرا، إذ أقف أمامكم بأن ماثل أمام هيئة موقرة تضم صفوة العلماء وقادة الفكر في عصرنا ذلك العصر الذي إن صح أن نصف طابعه بلفظين أو ثلاثة، قلنا: «إنه عصر التجديد والابتكار والحياة» وإن جاز أن نشبه ببعض الحقب المجيدة في تاريخ أوطاننا، قلنا: «ما من عصر يماثله، اللهم إلا عهد الأسرة الثامنة عشر الذهبي في تاريخ مصر القديم، وعصر الخلفاء العباسيين الذهبي في تاريخ العرب جميعاً».

لقد حرصت الجمعية المصرية لتاريخ العلوم على إحياء ذكرى عالم من علماء ذلك العصر المجيد، ولكن اختيارها لم يقع على أحد الذين ذاع صيتهم، واطرد، وظل يسطع في سماء العلم حتى اليوم... لا.. لأنها أثرت - وهنا العبرة من غير شك - أن يكون تكريمها لذكرى عالم ظل مجهولاً قروناً طويلة ولكنه امتاز بصفتين هما في الواقع أقيم صفات العالم البحاث، وهما عدم الاكتفاء بالتصنيف والنقل والسير على الطرق المرسومة، ورفض كل ما لاتقره العين والتجربة.

هذا العالم هو (ابن الهيثم) الذي رفع عنه أستاذنا الأستاذ مصطفى نظيف، ستار النسيان الكثيف الذي كان أسدله عليه التاريخ.

ولا شك في أن الجمعية الموقرة، وصغرى وليداتها شعبة تاريخ الطب، عند اختيارها لموضوع المحاضرة التي تلقى اليوم في سلسلة المحاضرات التذكارية (لابن الهيثم)، لا شك في أنها أرادت تكريم روح التجربة والاختراع ووضعها فوق التقليد.

* المحاضرة التذكارية لاس الهيثم، أقيمت في حلال الدورة الثالثة للاتحاد العلمي المصري سنة ١٩٥٩، ويستطيع القارئ الاطلاع على المراجع كاملة في ابن النفيس (١٧٩).

وهناك أوجه عدة يتشابه فيها (ابن النفيس، وابن الهيثم)، فقد نشأ كل منهما في الإقليم الشمالى، ثم استدعاهما الحكام إلى مصر، وظل المؤلف الرئيسى لكل منهما مهملاً قروناً طويلة، وأسندت كشوفهما طوال هذا الوقت إلى غيرهما، وآل إلى مصريين تصحيح الأمور ووضعها في نصابها في كل حالة، مصطفى نظيف (لابن الهيثم)، وعيسى الدين التطاوى (لابن النفيس).

وقد ألم كلاهما بكل ما وصل إليه علم عصرهما من فقه وشرعة وطب وعلم بحت، ألف كلاهما عشرات بل مئات المؤلفات العلمية، وكان رأيهما في البحث مثابلاً، فقد قال أولهما: «ونجعل غرضنا في جميع ما نستقره ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه ونتقده طلب الحق لا الميل إلى الآراء».

وكان ثانيهما يردد آراء الأول إذ يقول: «فإننا نعتمد على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه».

وهذه العبارات تم على جرأة وتحد غريبين على عصر ورودهما.

ولد علاء الدين أبو الحسن على بن أبي الحزم القرشى المعروف (بإبن النفيس) بالقرب من دمشق سنة (٦٠٧هـ - ١٢١٠م). وكانت دمشق في ذلك الوقت قد بلغت قمة مجدها وذروة ازدهارها العلمى، بعد أن فقدت بغداد مكانتها الرفيعة، وبالرغم مما كان يصيب العالم العربى بين الحين والحين من الضربات على أيدى المغول في الشرق، وملوك أسبانيا في الغرب، والأتراك في الشمال، والصليبيين في الشرق الأدنى.

ولقد كان من بيدهم زمام الحكم من الأيوبيين يعيرون الصحة العامة والطب اهتماماً كبيراً ورعاية فائقة، وأصبحت دمشق عاصمة ملكهم - بعد أن تغلبوا على الصليبيين - مركزاً هاماً للعلوم والفنون، وكان من مظاهر هذه النهضة الضخمة، المكتبة التى أنشأها نور الدين محمود بن زنكى عم صلاح الدين، والتى غذاها بما جمع فيها من الكتب القيمة، والبارستان النورى الكبير الذى عمل فيه أمهر أطباء العصر. ومع عدم الاستقرار السياسى، فقد ظلت المنشآت الطبية مطردة الأزدهار.

وكان معظم مشاهير الأطباء يقطنون الشام. ومن بين الذين عهد إليهم بإدارة

الجمارستان النورى والتعليم الطبى فيه (مذهب الدين الدخوار) المتوفى سنة ٦٢٨هـ، وكان من (مدرسة ابن التلميذ) التى كانت قد انتقلت من بغداد إلى سوريا. ولكى أظهر ما حازاه (الدخوار) من شهرة وماظفر به من مكانة سأذكر لكم ما قاله عنه (ابن أب أصيعة):

« وكان رحمه الله أوجد عصره، وفريد دهره، وعلامة زمانه، وإليه انتهت رئاسة صناعة الطب ومعرفتها، على ما ينبغي عليه وتحقيق كلياتها وجزئياتها. ولم يكن فى اجتهاده من يجاريه، ولا فى علمه من يماثله... فاق أهل زمانه فى صناعة الطب وحظى عند الملوك، ونال من جتهتهم من المال والجاه ما لم يتلّه غيره من الأطباء.. وكان أبوه كحالا. وخدم الحكيم مذهب الدين الملك العادل أبا بكر بن أيوب، وبعث إليه أيضاً أولاد الملك العادل وسائر ملوك الشرق وغيرهم، الذهب والخلع... وولاه السلطان الكبير رئاسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام.. وفوض إليه النظر فى أمر الكحالين واختيارهم... ».

وقد أوصى (الدخوار) بأن يحول بيته إلى مدرسة للطب بعد مماته. وقد تم ذلك فعلا فأنشئت المدرسة ولقبت بالمدرسة الدخوارية. وكان يزامل (الدخوار) بالمستشفى (النورى عمران الإسرائيلي، وراضى الدين الرحابى). وكان من بين تلاميذهم (ابن أب الفرج، وابن أب أصيعة، وابن النفيس). وهذان الآخران أشرفا فيما بعد على قسمين من هذا المستشفى.

أما فى مصر فلم يكن الطب أقل تقدماً منه فى دمشق. ذلك لأن الأمراء الأيوبيين حذوا حذو أبهم صلاح الدين، الذى أسس فى هذه العاصمة الجمارستان الذى سعى أولاً بالناصرى، إلى مؤسسه الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم (بالعتيق)، عندما أنشأ الملك المنصور سيف الدين قلاوون الجمارستان الذى سعى بالمنصورى، وقد أعجب (أبو العباس القلقشندى (توفى سنة ٨٢١هـ - ١٤١٨م) عند زيارته للقاهرة بالجمارستان الذى كان مايزال العمل قائماً فيه، وأشاد بنظامه، وبما كان يناله المرضى به من العلاج والعناية الفائقة دون أجر، وبما رواه عنه (القلقشندى): أن الملك صلاح الدين، عندما فتح مصر، واستولى على قصر الفاطميين، وجد قاعة كان قد بناها الخليفة الفاطمى

العزیز بالله المعز (۳۸۴ھ - ۹۹۴م). وعندما قيل له إن بها طلسماً يحميها من تسلل القمل إليها اختار هذه القاعة لتكون بمارستاناً ونجد هذه الرواية نفسها في مخطوط عنوانه «قطف الأزهار في الخطط والآثار» (لأبي السرور البكري). وهذا المخطوط موجود في دار الكتب المصرية. وقد قال (علي باشا مبارك) في «الخطط الحديثة» إن المارستان العتيق هذا كان يقع في المكان الذي يشغله الآن منزل الغمري الحصري، وإن بابه كان يفتح على حارة اللوخية وهي التي كانت تسمى قبل ذلك بحارة قائد القواد.

وقد قام بالعمل والتدريس فيه أطباء كثيرون نشئوا في الشام ثم أرسلهم الحكام الأيوبيون ليعملوا في مصر: من هؤلاء: (عبد اللطيف المهندس، وراضى الدين الرحاوي، ويوسف السبتي، وابن أبي أصيبعة، وابن النفيس).

ومع أن مؤرخ الطب (ابن أبي أصيبعة) كان معاصراً (لابن النفيس) وتلمذ معه على (الدخوان)، ثم زامله في عمله، فإنه لم يذكره في النسخ المتداولة من مؤلفه الشهير «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

وكان (ابن أبي أصيبعة) رئيساً لقسم الرمد في المستشفى الذي كان يديره (ابن النفيس)، ثم غادر ذات يوم هذا المستشفى وذهب إلى صرخد الواقعة على حدود الشام، حيث قضى شطراً كبيراً من حياته في خدمة أميرها عز الدين فاروق شاه وقد ابتدع (مايرهوف) (۱۸۰) رواية ترمى إلى اتهام (ابن النفيس) بتدبير دسيسة أدت إلى هجرة (ابن أبي أصيبعة)، وإلى تعليل إغفال ذكر (ابن النفيس) في «عيون الأنباء» على أنه انتقام (ابن أبي أصيبعة) منه.

ولئن كان هذا الرأي جائزاً عندما ابتكر (مايرهوف) هذه الفرية، فإنه أصبح من المؤكد أن شيئاً منها لم يحدث بعد أن عثر يوسف العش على مخطوط بدمشق، تبين أنه جزء من «عيون الأنباء» (۱۸۱) وقد وصف فيه (ابن النفيس) بأسمى عبارات الإجلال والإطراء وبأنه «كالبهر الخضم والطود الأشم للعلوم... إلخ». فبرئ (ابن النفيس) من مكيدة لم تتفق مع ما عرف عنه من سمو الخلق.

هذا بالإضافة إلى أن (ابن أبي أصيبعة) ألف أكثر أجزاء «عيون الأنباء» و(ابن

النفس) لم يتجاوز الخمس والثلاثين سنة، أى قبل أن يحوز الشهرة التى حازها فى النصف الثانى من حياته.

وكيفما كان الأمر، فإن الشيء الذى يؤسف له هو أن هذا الإغفال قد حرم تاريخ الطب عند العرب من كثير من التفاصيل عن حياة (ابن النفس)، وعن إنتاجه، وعن تعلموا عليه أمثال: (بدر الدين حسن، وأمين الدولة، والسديد، وأبى القفل بن كرشك الإسكندرى).

ولذا فقد كاد (ابن النفس) يُنسى تماماً فى القرون الماضية لولا ظروف مسنوبها فيما بعد أدت إلى بحث وتقص نتج عنها كشف الدكتور (مايرهوف) عن ترجمتين متشابهتين (لابن النفس) فى مؤلفين موجودين بدار الكتب المصرية أحدهما هو «مسالك الأنصار فى أخبار ملوك الأمصار» (لأبى الفضل العمري)، والآخر هو «الوفاء بالوفيات» (لخليل بن أبى الصفى) الذى ضم ترجمات لحياة الكثيرين. ولقد استقى هذان المؤلفان معلوماتهما مما رواه عنه (أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى) الذى هاجر من غرناطة إلى القاهرة حيث توفى سنة ١٣٤٥م. وقد ورد ذكر (ابن النفس) كذلك فى مؤلفات مشرعى المذهب الشافعى وكان ينتمى إليهم، وفى «روضة العيون» (لمحمد البقي)، وفى «طبقات السبكي» و«مفتاح السعادة» (لطاش كوسرى زادة)، و«حسن المحاضرة» (للسيوطى)، و«شذرات الذهب» (لابن العماد الحنبلى)، و«كشف الظنون» (لحاج خليفة)، و«تاريخ الذهبى»، و«مرآة الجنان» (للباهى)، و«عقود الزمان» (للعينى).

ويستقى من تلك الأصول أن (علاء الدين أبو العلا على ابن أبى الحزم القرشى)، المسمى (بالمصرى، وبابن النفس) نشأ فى دمشق، وتعلم على (الدخوان) وغيره من مشاهير الأساتذة أمثال (عمران الإسرائيلى، وراضى الدين الرحابى)، ثم قام بدوره بتدريس الطب، وأشرف على جناح فى المستشفى النورى.. وبعد ذلك غادر الشام واستوطن القاهرة حيث عمل فى المستشفى الناصرى، ورج فى مناصب الأطباء بها إلى أن أصبح رئيسهم ورئيس أطباء مصر قاطبة. ولا نعلم متى انتقل إلى القاهرة ولا من عينه فى منصبه من السلاطين.

وكان (علاء الدين أبو الحزم) نحيفاً طويل القامة رقيق الجانب، دمث الحق، ممتازاً في آداب المعاملة، ولم يتزوج.

وقد كان واسع الاطلاع محيطاً بكل شيء، من أعلم الناس في عهده، ليس في الطب فحسب، ولكن في كافة العلوم: أحاط بفلسفة الإغريق و (ابن سينا)، وتعلم (نحو الزمخشري)، ودرس الشرع في دمشق ثم في مدرسة الشريعة المسروية بالقاهرة، ووضع فيه عدة مؤلفات منها تعليق على (تنقيح الشيرازي)، وآخرين في الفلسفة لم يصل إلينا وهما تعليقان على «الإشارات» وعلى «الهداية في الحكمة» (لابن سينا). كما أنه تناول الفقه في رسائل عدة منها «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية» و «مختصر في علم أصول الحديث» الموجودان بدار الكتب المصرية، وجدال فقهي عنوانه «فاضل بن ناطق» يرد فيه على «حى بن يقطان» (لابن سينا).

أما في الطب فيروى أنه حفظ (ابن سينا) عن ظهر قلب، وأنه ألم بمؤلفات (جالينوس) إلماً واسعاً، ولقد اعتبره معاصروه مساوياً (لابن سينا) من حيث المكانة العلمية ومدى معرفته للطب، إلا أنه يستمد من بعض المعلومات التي تركها تلاميذه أنه انتقد لأنه كان يعتمد في علاجه على الحمية أكثر من اعتماده على العقاقير، وأنه كان يفضل منها المفردات على الأدوية المركبة التي كان يصفها معاصروه من الأطباء. مما حضر الصيدلى الذى كان يتعامل معه على القول له يوماً إنه إذا استمر على وصف مثل هذه الوصفات فإن الأفضل له أن يعالج مرضاه في حانوت القصاب أما إذا كان يرغب في التعاون معه فعليه أن يصف السكر والأشربة والعقاقير فقط. ومن الروايات التي رويت عنه والتي تدل على عمق تفكيره وسرعة خاطره أنه كان يوماً في الحمام فتركة فجأة إلى قاعة اللبس، وأمر بإحضار ما يلزم للكتابة، وبادر إلى كتابة رسالة طويلة في النبض. وكان يكثر من الكتابة. ومع أن أكثر كتاباته كانت تعليقات على مؤلفين ممن سبقوه، إلا أنه كان يؤلف بسرعة ودون رجوع إلى الأصول. فكانت الأقلام تبرى له، حتى إذا حفى قلم رماه واختار آخر واستمر في الكتابة دون انقطاع.

وتوفى بعد مرض دام ستة أيام سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ لله) - حسب رواية (حاج خليفة)، أو (سنة ٦٩٦ هـ - ١٢٩٦ م) حسب رواية أخرى. ولا نعرف نوع مرضه،

وروى أن بعض زملائه وصف له في أثناء مرضه أن يتعاطى النيذ فكان جوابه أنه لا يود المثل أمام ربه تعالى وفي جسمه خمر. وقد وهب بيته ومكتبته للمستشفى المنصوري الذي كان السلطان قلاوون قد أسسه (عام ٦٦٨ هـ - ١٢٨٤ م)، وهو الذي يسمى اليوم بمستشفى قلاوون.

وقد زعم البعض أنه عمل بهذا المستشفى، أي المنصوري، لا بالمستشفى الناصري، وإذا تأملنا في تاريخ هذا المستشفى وجدنا أن الملك قلاوون عندما تولى الحكم نزع ملكية قطعة كانت موجودة بين القصرين الفاطميين. وكانت قد شغلتها أول الأمر الأميرة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله ثالث خلفاء الفاطميين. وقد سميت هذه القاعة إبان سقوط الفاطميين بيت المسك، ثم أصبحت ملكاً للملك المفضل قطب الدين أحمد، نجل الملك العادل أبي بكر بن أيوب الذي سكنها، فسميت بالدار القطبية. وقد نزع قلاوون الملكية من السيدة عصمة الدين خطون القطبية، وعوضها عنها قصر الزمرد الواقع على رحبة باب العيد. ثم إنه بنى في هذه القاعة الجمارستان الجديد، ومكتب الأيتام، وقد تم إنشاؤهما بعد البدء في العمل (في أول ربيع الثاني سنة ٦٨٣ هـ أي ١٢٨٤ م) بثنائية أشهر. ولذا فإنه يجوز الشك في صحة الزعم بأن (ابن النفيس) عمل في هذا المستشفى، إذ إنه توفي على الأكثر في سنة ٦٨٥ هـ، أي أن سنه كانت قد تجاوزت السبعين عند الإنشاء.

ومن الجائز أن يكون قد عمل بالمستشفى العتيق، أي النوري، مدة من حياته، إلى أن أنشأ قلاوون الجمارستان المنصوري، فرأى السلطان أن يسند إدارته إلى هذا النظام الكبير ليفيد من سمعته الطيبة وتوجيهه الفني المستنير. وربما يفسر ذلك سر إهدائه مكتبته لهذا المستشفى الناشئ الذي لم يكن قد تيسر له بعد تكوين مكتبة مناسبة.

ومن مؤلفاته الطبية «الكتاب الشامل في الطب» وهو موسوعة كان ينوي أن يتمها في ٣٠٠ جزء حسب رواية (حاج خليفة)، إلا أنه لم يكتب منها سوى ثمانين جزءاً، وجدت بعد وفاته في المكتبة التي خلفها للمستشفى المنصوري. ولم يرد إلينا منها إلا بعض فقرات توجد حالياً في المكتبة البودلية باكسفورد (رقم ٥٣٦-٥٣٩). ثم كتابه في الرمد واسمه «المهذب في الكحول» الموجود في مكتبة الفاتيكان وكتابه عن الغذاء «المختار في الأغذية»، و«شرح فصول أبقراط» الذي توجد منه نسخ في مكتبات باريس

والبودلية والأسكوريال، والذي طبع في إيران سنة (١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ م)، و «شرح تقديمات المعارف» الذي نسب إليه (حاج خليفة) وهو تعليق على تكهنات (أبقراط)، ثم «شرح مسائل حنين بن إسحق» الموجود في مكتبة لندن، و «شرح الهداية في الطب»، ومؤلف ذكره (بروكلمان) واسمه «تفاسير العلل وأسباب الأمراض»، وتعليق على «كتاب الأوثة» (لأبقراط) موجود الآن في أيا صوفيا باستانبول.

أما الكتاب الذي نال أعظم شهرة فهو «موجز القانون» وهو موجز عملي لقانون (ابن سينا) كتبه من أجل أطباء عصره، ويقع الموجز في أربعة أجزاء لا خمسة كما هو حال القانون، إذ إنه ضم كتاب الأدوية إلى الجزء الثاني بعد المفردات، وتوجد نسخ منه في : باريس، وأكسفورد، وفلورنسا، وميونخ، والأسكوريال. ومما يدل على انتشار هذا المؤلف كثرة عدد التعليقات التي خصصت له. وأولها يكاد يقارنه وهو (لأب إسحق إبراهيم بن محمد الحكيم) المتوفى سنة ١٢٩١. ثم آخر اسمه «حل الموجز» لجمال الدين محمد بن محمد الأكرائي، متوفى قبل ١٣٩٧، وهو موجود في المكتبة البودلية، ثم ثالث ألف في كهرمان وانتهى نسخة في سمرقند سنة ١٤٣٧ م (لنيس بن عوذ الكرمان)، وهو حسب قول (حاج خليفة) أجود التعليقات، وأضاف إليه (غرس الدين أحمد بن إبراهيم الحلبي) حول ١٥٦٣ بعض الحواشي. وهناك تعليقات أخرى (لحمود أحمد الأقساطي الحنفي، (ولد ١٤٠٧)، ولشهاب الدين محمد البلبلي، ولسيد الدين الكزروني). وهذان الأخيران لا نعرف تاريخهما، وقد ترجمه أيضاً إلى التركية أولاً (مصلح الدين مصطفى بن شعبان السرور) ثم (أحمد بن كمال الطبيب) في أوربا نوبل، وترجم إلى العبرية وعنوانه في هذه اللغة «سفر حاموجز»، وقد طبعه لأول مرة بالإنجليزية (مولوى غلام مغلوم) ومولوى عبد الله سنة ١٨٢٨) في كالكونا تحت عنوان «الشرح المغني» أو «المغني في شرح الموجز» وكان هذا باللغة الإنجليزية وذكر في هذه الطبعة الألفاظ الإغريقية إلى جانب ما يطابقها من الكلمات الفنية العربية، ثم أعيد طبعه في لوكنو، وضم إليه معجم بأسماء المفردات مفسرة بالإيرانية. ومازال هذا المؤلف يدرس إلى اليوم في الهند.

ولو أن ما ذكرناه هو كل ما يؤهل اسم (ابن النفيس) للخلود لكان كافياً لأن يكفل له مكانة رفيعة في مصاف هؤلاء الأفاضل، الضالعين في العلم والفكر، الذين رزقتهم العصور الوسطى في بلاد متعددة، والذين أحاطوا - بفضل عقولهم النادرة -

بكل ما توصل إليه عصرهم من شتى صنوف المعرفة. وإنما فخر (ابن النفيس)، بل فخر العرب في كل مكان، أن يكون هذا العالم الفد قد تطاول على القيود التقليدية التي كانت تشل نشاط المشتغلين بالعلم، وتحرر من سيطرة (جالينوس، وابن سينا)، وأنكر - في جرأة - كل ما لم تره عينه أو يصدقه عقله، وهذا في مؤلف هو «شرح تشريح القانون» الذي اكتفى (ليكلير Leclerc) في كتابه عن طب العرب (سنة ١٨٧٦، ص ٢٠٧، الجزء الثاني) بأن قال إنه موجود في مكتبات باريس والأسكوريال وأكسفورد. وقد بات هذا الكتاب في غبار المكتبات لم يستلفت نظر القارئ سبعة قرون إلى أن عثر عليه طبيب مصري هو الدكتور (محمي الدين التطاوى سنة ١٩٢٤) في دار كتب برلين. وقد قام التطاوى بدراسته في الرسالة التي قدمها لنيل الدكتوراة من جامعة فريبورج بألمانيا، ويرى الدكتور (مايرهوف) (١٨٠١) أن الدكتور (ديبجن Diepgen) رئيس معهد تاريخ الطب في برلين أرسل إليه نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة من هذه الرسالة التي لم تكن طبعت بعد، وقد كان هذا بداية بحث أدى إلى الكشف عن نسخ أخرى من هذا المؤلف يشير (مايرهوف) إلى أربع منها وعن ترجمات لحياة (ابن النفيس) في كثير من المؤلفات القديمة.

وقد أراد البعض أن يختص من (التطاوى) الأولية لنفسه في هذا الكشف، غير أن (جاستون فيت) وضع سنة ١٩٥٦ الأمور في نصابها. والظاهر أن طبيين فرنسيين هما (بيتي وهاريان) كتباً سنة ١٩٣٩ عن (ابن النفيس) واعترفا بأنها استقيا معلوماتها من مقال (مايرهوف) الذي كان قد ترجم إلى الفرنسية الفقرات الخاصة بالدورة الرئوية. ثم أنها في سنة ١٩٤٨ في مقال آخر ادعى أن (لكلين) لم يذكر (ابن النفيس)، وهو ما كذبه (عبد الكريم شهادة) في رسالته عن (ابن النفيس)، وأنها طلبا من أديب مغربي أن يترجم لها النص العربي. إلا أن (فيت) قارن الترجمتين واستنتج أن ترجمة هذا الأديب تكاد تكون قد نقلت حرفياً من ترجمة (مايرهوف)، بل إنه أغفل نفس الألفاظ التي كان قد أغفلها (مايرهوف)، فتساءل بشيء من التهكم إذا كان هذا الأديب «عشر» الدكتوراة (بيتي، وهاريان) بأن نقل ترجمة (مايرهوف) نقلاً، بدلاً من أن يتحمل هو مشقة الترجمة!

وبعد ذلك، سنة ١٩٥٥، بعد أن نشر الدكتور (عبد الكريم شهادة) رسالته

بالفرنسية عن هذا الطبيب، ادعى أن ترجمة الدكتور (كرامة) هي الترجمة التي أعطاها. .
وأغفلا القول بأن ترجمتها منقولة عن (مايرهوف).

أما الدكتور (عبد الكريم شهادة) فإنه اعترف بفضل (التطاوى) في هذا الكشف

ولنتظر الآن إلى هذا المؤلف! ليس أدل على قيمته، وعلى الروح السائدة فيه، مما ورد في مقدمته: «وبعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله، فإن قصدنا الآن إبراز ماتيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس (أبي علي الحسن بن عبد الله بن سينا) رحمه الله في التشريح في جملة كتاب القانون. وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتاب القانون إلى ما قاله في الكتاب الثالث من هذه الكتب، وذلك ليكون الكلام في التشريح جميعه منظوماً، وقد حدثنا عن مباشرة التشريح بوازع الشريعة وبما في أخلاقنا من الرحمة، فلذلك رأينا أن نعتمد في تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل (جالينوس) إذ كانت كتبه أجود الكتب التي وصلت إلينا في هذا الفن، مع أنه أطلع على كثير من العضلات لم يسبق إلى مشاهدتها فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النسخ أو إخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها. وأما منافع كل واحد من الأعضاء فإنما نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه».

ولكى ندرك أثر هذا الاتجاه في التفكير ومداه البعيد أرى أن أعرض أمامكم نظرية حركة الدم منذ (جالينوس)، التي نقلها (ابن سينا)، ثم تعليقات (ابن النفيس) عليها.

وحين أقول حركة الدم أود أن أميز بين الحركة والدورة، إذ إن فكرة الدورة لم تنشأ إلا في القرن السابع عشر، وأن تلك الحركة كانت تعتبر مجرد مد وجزر في الأوعية. وتبعاً لهذه النظرية كان الوريد البابي ينقل الغذاء من الأمعاء إلى الكبد حيث كان يحول إلى دم. ثم كان الدم يسرى من الكبد إلى سائر الأعضاء عن طريق وريدين أجوفين، أحدهما، وكان يسمى الوريد الأجوف السفلي، هو جزء الوريد الأجوف السفلي الواقع أسفل مصب الوريد الكبدي الذي يجري إلى أسفل ليغذي الكليتين والأطراف السفلى. والآخر وكان يسمى بالوريد الأجوف العلوي يسرى إلى أعلى، وكان مكوناً من جزء

الوريد الأجوف السفلى الحالى الواقع بين الكبد والقلب، والوريد الأجوف العلوى الذى كان يعد مكملاً له، أما نصف القلب الأيمن، فإنه كان ينظر إليه على أنه جيب للوريد لا منفذ له. وكان الدم - تبعاً لهذه النظرية - يصل من الكبد إلى التجويف الأيمن فيتخلص فيه من الشوائب التى تكون قد علقّت به فى مختلف الأعضاء، ثم يعود مطهراً سالكاً الطريق نفسه إلى الأحشاء، على حين تذهب الشوائب عن طريق الوريد الشريان (الشريان الرئوى) إلى الرئة وتتصعد منها إلى الزفير.

إلا أن (جالينوس) وجد أن الأوعية الواردة إلى القلب أكثر اتساعاً من الأوعية الخارجة منه، فاستنتج من ذلك أن الدم الوارد إليه أكثر من الخارج منه عن طريق الأوعية، مما جعله يزعم أن هناك منفذاً، يتسرب منه الفرق بين الكيتين إلى البطن الأيسر، وأن هذا المنفذ يقع فى الحاجز بين التجويفين ويفسر وجود بعض الدم فى الشرايين.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الأورطا: فإنه أكبر من الشريان الوريدى (الوريد الرئوى)، والعلة فى هذا أنه يستقبل بعض الدم الإضافى من التجويف الأيمن عن طريق هذا المنفذ. وكان الأورطا فى نظرهم مجرد امتداد للقصبة الهوائية، ومن هنا تسمية القصبة فى اللغة الفرنسية *trachée artère*، ومعناها الشريان الخشن. كان (جالينوس) إذن يعتقد أن الهواء يرد إلى التجويف الأيسر عن طريق القصبة ويمتزج فيه بالدم النافذ من البطن الأيمن فتتولد منها الروح *pneuma* التى تسرى فى الشرايين.

ولم يكن غريباً أن تصدر هذه المزاعم عن (جالينوس) وهو فيلسوف متشيع بالأراء الغائية، فقد قال إن من الأفضل للشرايين أن تتلقى دماً سبق إعداده فى الأوردة والبطن الأيمن، وإن الفائدة التى تعود من تصفيته عبر منافذ الحاجز ليصبح شرياناً واضحة لا تحتاج إلى برهان، وكذا عد الأوردة بالنسبة إلى الشرايين كالمعدة بالنسبة للأوردة، إذ لا يستحيل منطقياً أن تكون الروح نوعاً من الإفراز الصادر عن الدم. ولذا فقد استدل من ذلك على أن الطبيعة تحسن دائماً فيما تفعل.

كان إذن الجهاز الوريدى فى نظره منفصلاً تماماً عن الجهاز الشريانى، فيما عدا منافذ حاجز القلب المزعومة، وكانت وظيفتا الجهازين مختلفتين، فالأول ينقل الدم من الكبد

إلى القلب ومن القلب إلى الأنسجة، أما الآخر فينقل الروح من القلب إلى الأعضاء. وهنا يبدو التناقض جلياً في تفكير (جالينوس)، فبينما كان يدعى دائماً الاعتماد على التشريح ويوصي تلامذته بالافتداء به، إذا به يؤكد وجود منافذ لم ترها عين، وذلك لسبب ميله لصياغة الملاحظات الحسية على شكل يلائم نظرياته الافتراضية. وقد حار المؤرخون في تفسير التناقض فذهب بعضهم إلى تعليله بأنه أسس افتراضاته على نتائج تشريحية للأجنة والموت من الأولاد، إذ إن تكوين أوعيتهم يشبه فعلاً ما وصفه للأوعية عن البالغين، إلا أن الإنصاف يقتضي منا أن نتذكر أن عصره كانت الغلبة فيه للتعقل على التجربة. وكيفما كان الأمر فإن هذه المنافذ ظلت عقيدة جامدة حتى القرن السابع عشر وحتى بين أكثر الأطباء استقلالاً في الفكر، فقد آمن بها ابن سينا، كما سجلها (ليوناردو دافنشي) في لوحاته التشريحية عندما كانت النهضة العلمية الإيطالية في ذروتها، مع أنه قام هو نفسه بتشريح جثث عدة.

لننظر الآن إلى ماورد في تعليقات (ابن النفيس) على ما قاله (ابن سينا، وجالينوس) في كتابه «شرح التشريح»، مع عدم التقيد بمراعاة الترتيب الذي اتبعه (ابن النفيس) في بسط آرائه، إذ إن كتابه يترعر بال تكرار والاستطراد ولا يتبع نظاماً متسلسلاً في عرض قضاياها، وهذا طبعى، إذ إنه راعى النظام نفسه الذي روعى في تأليف كتاب «القانون».

نلاحظ أن تفكيره منطقي وأن نتائجه صحيحة في معظم الحالات، اللهم إلا عندما يؤكد مثلاً، على عكس ما قاله (ابن سينا)، أن البطين الأيمن لا ينقبض تلقائياً، وإنما يجذب الدم بامتصاص سلبى.

ويمكن حصر ما أتى به (ابن النفيس) من جديد في الفقرات التالية الخاصة بالروح، والتي يتضح منها مبدئياً أن المؤلف قبل النظرة السائدة، وهى أن البطين الأيسر والشرابين مليئة بالروح، وأن الروح تتولد في التجويف الأيسر باختلاط الدم بالهواء. قال (ابن النفيس):

«والذى نقوله نحن والله أعلم، إن القلب لما كان من أفعاله توليد الروح وهى إنما تتكون من دم دقيق جداً شديد المخالطة لجرم هوائى فلاند وأن يحجل في القلب دم

رقيق جدًا وهواء يمكن أن يحدث الروح من الجرم المختلط منها وذلك حيث تولد الروح وهو في التجويف الأيسر.

ثم يفسر ضرورة الرقة الشديدة في الدم الواصل إلى التجويف الأيسر وكيفية حدوث هذه الرقة. فيقول «ولا بد في قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء، فإن الهواء لو خالط الدم وهو على غلظه لم يكن جملتها جسم متشابه الأجزاء. وهذا التجويف هو التجويف الأيمن».

نستطيع إذن أن نستخلص أن وجود تجويف آخر عثم في نظره لضرورة تلطيف الدم تمهيدًا لمخالطته الهواء. وهذا استنتاج غائى بحث. ونعني بذلك استنتاجه وجود الشيء من ضرورته، وربما قال البعض إنه سبق في ذلك (لامارك) وأمثاله في نظريتهم القائلة بأن الوظيفة تكيف العضو، ولكن العلماء المتعلقين كانوا - في رأينا - كثيرًا ما يبدئون بملاحظة واقعية، ثم يشغلون أنفسهم بعد ذلك بمحاولة استنتاج ضرورتها. ويسترسل (ابن النفيس) في سرده لأرائه فيقول :

«وإذا لطف الدم في هذا التجويف (أى الأيمن) فلا بد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث مولد الروح». وهذا بالطبع ضرورى لإتمام نظريته في تكوين الروح. غير أنه يضيف «ولكن ليس بينهما منفذ، فإن جرم القلب هناك سميك ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه (جالينوس) فإن مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ.

من أين إذن يكون مرور الدم؟ ألم ينكر صراحة وجود مسام في الحاجز؟ لقد بحث (ابن النفيس) عن مكان هذا الاتصال، فلم يزد من أن يقطع بأن الدم يلطف في التجويف الأيمن وينفذ إلى الرئة وهناك - على حد قوله - «يخالط الهواء ويرشح اللطف ما فيه وينفذ إلى الشريان الوريدي (الوريد الرئوى)، ليوصله إلى التجويف الأيسر وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح، ويضيف :

«وما بق منه أقل لطافة تستعمله الرئة في غذائها».

وقد أكد هذا في موضع آخر بقوله «فإن نفوذ الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرئة بعد سحبه وتصعده من البطين الأيمن كما قررناه أولاً».

وكأنه لم يكتف بكل هذا فأراد زيادة التأكيد بأن الدم إنما يجرى في اتجاه واحد وأنه ليس موضوع مد وجزر فقال أيضاً: «قوله واتصال الدم الذى يغذو الرئة، إلى الرئة من القلب (وهو يعنى التجويف الأيسر)، هذا هو الرأى المشهور وهو عندنا باطل فإن غذاء الرئة لا يصل إليهما من هذا الشريان لأنه لا يرتفع إليهما من التجويف، إنما يأتى إليه من الرئة لا أن الرئة آخذة منه. أما نفوذ الدم من القلب إلى الرئة فهو في الوريد الشريان (الشريان الرئوى). واستطرد في معرض حديثه عن سبب نخافة جدار الوريد الرئوى: «وقوله وليكون أطوع (أى جدار الوريد) ليرشح منه ما يرشح منه إلى الرئة من الدم اللطيف، هذا أيضاً على الرأى المشهور والحق أنه ليس كذلك بل ليكون أطوع لقبول ما ينفذ من الدم الهوائى الذى يوصله من الرئة للقلب.

يبدو بوضوح في كل هذه الفقرات أن (ابن النفيس) اهتدى إلى المعرفة بأن اتجاه الدم ثابت وأنه يمر من التجويف الأيمن إلى الرئة حيث يخالط الهواء، ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) إلى التجويف الأيسر.

ولننظر الآن إلى مقاله عن الشريان الوريدى (وهو ما نسميه الوريد الرئوى) والوريد الشريانى (وهو الشريان الرئوى) إذ إن أقواله في هذا الصدد ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما سبق.

بدأ (ابن النفيس) بأن تناول الشريان الوريدى (وهو ما نسميه بالوريد الرئوى) فقال «إن هذا العرق شبيه بالأوردة وشبيه بالشريان. أما شبهه بالأوردة فلأنه من طبقة واحدة، وأن جرمه نحيف، وأنه على قوام ينفذ فيه الدم لغذاء عضو». ويفسر هذا في فقرة أخرى فيقول «فلا بد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ في الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) إلى الرئة لينبت في جرمها ويخالط الهواء ويصقى أطف مافيه وينفذ إلى الشريان الوريدى ليوصله إلى التجويف الأيسر» ثم في مكان آخر:

«ولذلك جعل الوريد الشريانى (الشريان الرئوى)، شديد الاستحفاف ذا طبقتين ليكون ما ينفذ من مسامه شديد الرقة، وجعل الشريان الوريدى نحيفاً ذا طبقة واحدة ليسهل قبوله لما خرج من ذلك الوريد ولذلك جعل بين هذين العرقين منافذ محسوسة». وفيما يتصل بهذه المنافذ يجب أن نتذكر أن العدسة المكبرة لم تكن قد اخترعت بعد،

وأن مالبجى لم يكشف عن الأوعية الشعرية إلا بعدة بقرون، الأمر الذى جعل الشرايين تعد منفصلة انفصالا تاماً عن الأوردة.

ولذلك فإن (ابن النفيس) لم يبعد كثيراً عن الحقيقة عندما قال إن الدم يمر من مسام بين العرقين هى منافذ محسوسة بمثابة الأوعية الشعرية.

وتابع وصفه للشريان الوريدي (أى الوريدي الرئوى) بأن قال «أما شبهه بالشريان فلأنه ينبض. وينبت على قوهم من القلب. ولما كان نبض العروق من خواص الشرايين لا جرم كان إلحاق هذا العرق بالشرايين أولى.. ونقول إن العروق التى تنبت فى الرئة تخالف جميع عروق البدن وذلك لأن فى جميع الأعضاء يكون للعرق الضارب طبقتان ولغير الضارب طبقة واحدة والضارب مستحصف وغير الضارب نحيف وعروق الرئة بالعكس من هذا».

وهنا يبدو جلياً أنه يصف الشريان الوريدي (الوريد الرئوى) بأنه ينبض فى حين لا ينسب إلى الوريد الشرياني (الشريان الرئوى) سوى حركة تابعة لحركة الرئة. وفى هذا خطأ واضح. ثم علق على اختلاف أوعية الرئة عن الأوعية الأخرى من حيث تكوين جذراتها فقال «واختلفوا فى سبب ذلك فقال اسطسدداس إن ذلك لأن شرايين الرئة شديد الحركة كبيرتها جداً فتتهزل وذلك لأنها تنبض بنفسها وتنسبط وتنقبض تبعاً لانبساط الرئة وانقباضها والحركة المفرطة مهزلة. وأما أوردها فإنها تتحرك تبعاً لحركة الرئة فقط. والحركة المعتدلة مغلفة للجرم»، وهذا التعليل يلائم اهتمامه بتفسير كل ظاهرة تفسيراً عقلياً يتفق مع النظريات السائدة وإن كان لا يستند فى مزاعمه إلى برهان.

وهناك نقطة أخرى لم يوافق فيها (ابن سينا)، وهى عدد تجاويف القلب... «قوله وفيه ثلاث بطون. وهذا كلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر، ولا منفذ بين هذين البطينين البتة، وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروح فيفسد جوهرها. والتشريح يكذب ما قالوه.

وهذه العبارة الأخيرة جديرة بالتأمل. فقد سبق أن قال لنا فى ديباجة (شرح التشريح):

«وقد حدنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة وما فى أخلاقنا من الرحمة»، وهما

يقدم لنا الدليل على اعتماده على هذا التفسير إذ يقول : « والتشريح يكذب ذلك » .
ولسنا نجد تفسيراً لهذا التناقض الظاهري سوى أنه حرص على عدم إثارة حنق رجال الدين، شأنه في ذلك شأن كثيرين من العباقرة المجددين أمثال (كوبرنيكوس، وجاليليو) عندما استهلوا مؤلفاتهم الثورية بتأكيد تبعيتهم للعقائد الدينية السائدة في عصرهم. كما أنه حرص على ألا يتهم بالجهل، كما كان يتهم كل من ينكر تعاليم (جالينوس) إذ اعتذر عن هذا التقدير حين قال في الديباجة نفسها « إلا في أشياء يسيرة طئنا أنها من أغاليط النسخ ». وذلك لإثارة الشك في أمانة النسخ لافي علم الفاضل (جالينوس).

وبالإضافة فإن في هذا الكتاب فقرات عدة تستحق الذكر وتحض على التأمل والاعتبار، وحسي أن أذكر عبارة واحدة لها أهميتها بالنسبة لتاريخ الطب وهى خاصة بتغذية عضلة القلب التى قال عنها (ابن سينا) إنها تم عن طريق الدم الموجود في تجويفه وقال (ابن النفيس) بصدها : « قوله .. لا يصح البتة فإن غذاء القلب إنما هو من الدم المار فيه من العروق المارة في جرمه ». وهذه العبارة تجعل منه أول من فطن إلى وجود أوعية داخل عضلة القلب لتغذيتها، أى أول من وصف الشرايين التاجية، وهى تقوى الظن بأنه مارس التشريح.

ولعلنا نستطيع الآن وصف حركة الدم كما كان يتصورها، كان الدم يأتى غليظاً من الكبد إلى التجويف الأيمن حيث يلطف، ثم يمر في الشريان الرئوى، وهو وعاء غير نابض يتحرك مجرد حركة تابعة لحركة الرئة، وهذه الحركة لأنها معتدلة تغلظ جداره، ثم يصل الدم إلى الرئة حيث يصفى قسم رقيق، ويتبقى قسم غليظ يغذى الرئة.

أما القسم الرقيق فإنه يختلط بالهواء القادم إلى الرئة عن طريق القصبة الهوائية، ويدخل هذا المزيج الوريد الرئوى عبر جداره الرقيق. وعلة رقة الجدار أولاً ضرورتها لمرور الدم الملطف، ثم كثرة حركة الوريد، إذ إنه - في زعمه - نابض تلقائياً بالإضافة إلى حركته تبعاً لحركة الرئة ثم يصل المزيج (دم رقيق وهواء) إلى التجويف الأيسر حيث تتكون الروح، وتخرج الروح إلى الأورطا فالشرايين فالأنسجة، أما غذاء القلب فإنه يتم عن طريق شرايين تجرى في جرم القلب.

وإذا قارنا آراء (ابن النفيس) بنظريات معاصريه، تبين لنا أسبقية لهم. ولما أن

نتساءل : ألم تكن بحوثه جديرة بالتبصر والاعتبار؟ أنسيت حقاً؟

والحقيقة أن هذا الإهمال لم يكن إلا إهمالاً، وكان منشؤه حالة القداسة التي بنت رديحاً طويلاً من الزمن حائطاً حول أقوال (جالينوس)، لم يجزؤ أحد على هلمه، وقد بلغ الإيمان بأقوال العالم الإغريق (أن ريولان) - المعاصر (هارفى) - قطع بأن أى اختلاف يلاحظ بين الواقع وبين قضايا (جالينوس)، يرجع إلى تغير طراً على الطبيعة. ولذا فإنه يتحقق (لابن النفيس) مجدان : مجد كشوفه ومجد جراءته.

وهنا يجدر بنا أن نتساءل : « هل نسيت تعاليم (ابن النفيس) فيما بعد، وهل كان كشف نهضة الغرب كشفاً مستقلاً؟. وهذا ما سنعرض له فى الباب الحادى عشر من هذا المؤلف بعد استعراض نشأة جامعات أوربا وعرض نظرية (هارفى).